الشاعر البحريني علي عبدالله خليفة..ماء دلمون يورق كلمات

القصيدة طائر نار في دمي

محمّد رجب السامرّائي

أبو ظبي

حين انهيتُ قراءة ديوان "أنين الصّواري" للشاعر البحرينيّ علي عبدالله خليفة خلتُ نفسي أسافر معه في رحلة البحث عن اللؤلؤ في مياه الخليج العربيّ، وهو يبحر مودعاً الأهل والأحباب عند السيف، ومشهد النسوة النسوة والصبيّة تلوحان للمسافرين مع الأفق البعيد في رحلة ربما لايعود فيها أحد من جبروت البحر وغدر مياهه الزرق.

خليفة شاعر الملحّ الأجاج لبحرٍ قصيّ، ونهّام للمَحَامِلِ المُبحرات حين يسمع بأذنيه المُرهفات وببصره الثاقب حدّاء والوان الصواري الراحلات صَوب البعيد البعيد... مع رحلة السندباد الذي ربما لا يعود...

الصيّاد الماهر

علي عبدالله خليفة صوت شعريّ خليجيّ من مملكة البحرين، أحيا العديد من الأمسيات وشارك في عدد من المهرجانات داخل مملكة البحرين وفي الدول العربية والغربية، صيّاد ماهر للآلىء القصيد وحاصد مبدعٌ للجوائز والشهادات في المشهد الشعريّ الخليجيّ والعربيّ والدوليّ. فقد تفجرت موهبة الشاعر بجيّد القصائد وبوافر الدواوين منذ شبابه، فهو ابن المحرّق والمولود فيها العام 1940م، حيث درس في كُتّاب البحرين العام 1951م، ونال الثانوية العامة العام 1962م، ولكنّ همّوم الناس سكنت رؤاهُ فتفتحت عندها بواكير موهبته الشعريّة لتتدفق بالقصائد العذاب، وتنثال كالزّبد النافع على الجَميع بقصائد غنائية شفافة تملأ الأسماع وتشنّف وتُطرب الآذان...

أما حول أشعاره ودواوينه الصادرة فقد ترجمت مختارات منها إلى الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والبولندية، ومنحته جامعة جوسيبي سيكلونا الدولية درجة الدكتوراه الفخرية في الآداب عام 1987، تقديرا لجهوده الثقافية المتميزة، كما منحته مملكة البحرين وسام الكفاءة من الدرجة الأولى عام 2002م، ونال الشاعرّ درع الإبداع " في يوم الشعر العالميّ العام 2004م، من أسرة الأدباء والكتاب بمملكة البحرين، عن مجمل نتاجه الشعريّ ودوره الريادي في حركة الشعر البحرينيّ الحديث بمملكة البحرين.

تجربة إبداعيّة

لقد كانت لتجربة الشاعر خليفة الطويلة مع الشعر وشجونه التفات الكثير من النقاد والباحثين لكي يتناولوا تجربته الشعريّة الإبداعيّة بالنقد والدراسة والتحليل الأكاديمي نحو: صيادو اللؤلؤ في شعر علي عبدالله خليفة، رسالة ماجستير بالفرنسية – لجاكلين هوفر، بكلية الآداب بجامعة جنيف1972.

أحبّ علي عبدالله خليفة المناجاة الأليفة الأثيرة إلى روحه بطبعه الهادئ، فغالباً ما تقرأ في أغلب قصائده المَحبة المَكنونة في الذات الشاعرة التي تناشد الفلوات والمدن المصائر ورماد الذكريات الأليم، لأنّه شاعر ذوّاق يهيم بحبّ الناس ويكثر من بثّ شكاواهم وأنينهم ليرسلها كشعاع طيف شفيف في كلّ الاتجاهات وبقوافٍ مُرسلة. كما يحمل بين جنبيه تعبَ الغاصّة والمَهمومين المُتعبين بالعمل والكدّ اليوميّ في الرحلة الطويلة الشاقة وسط الخليج، فهو ابن المجتمع ينقل بصوته الشعريّ آلاماً من المعاناة التي عاشها أبناء أمته ووطنه، ويتقمص في قصائده أدوارهم ليسبغ عليها المصداقية في القول والعمل، أي إنّه يغمس روحه في بركة البوح المُعطر بالهيام.

وحول رؤى الشعر وهواجسه الدفينة الغائرة في الذات الإنسانية، فيراهُ د. إسماعيل نوري الربيعي بأنّه: " كائنٌ يسعى نحوَ استرداد طعم التراب وخصوبة الأرض ودوح الحمائم وعبق الياسمين، يحرص جاهداً على استعادتها من فرط ما تغولّت عادات الحياة المعاصرة، تلك التي راحت تعصر الذات". أما أشعاره فنحسّ فيها من خلال مجموعاته المنشورة تباعاً: " أنين الصواري، عطش النخيل، عصافير المسا، في وداع السيدة الخضراء، وإضاءة لذاكرة الوطن"، نحسّ فيها لمعان عناصر الشعريّة لتلون غيابات النصّ بفجرٍ قديم ما زال يتبختر بين الجرّاح و" دلمون" وفضاءات القصيد المتماوجة كشفق مُعمر يفتتح المواويل، فيئن النسغ والقصب وتغرد الصخور كما تقول غالية خوجة.

وحول البوح عن تجربته الشعريّة وأنّ الشعر طائر النار يغني في دمه، قال الشاعر:" الشعر طائر النار يغني في دمي وزهرة مائية الألوان في ذبولي واخضراري؛ هذه الرموز الثلاثة مفاتيح مهمة للتعرف علي مضمون تجربتي الشعرية.. فالحلم هو الفضاء الجميل الممتد أمام طائر يمتلك تهويماً إلى أبعد ومعنى...". والبحر عنده:" البحر المحيط بي من كلّ صوب في جزيرة كان البحر بالنسبة لها كلّ الحياة.. البحر هذا المتلاطم، العنيف، الهادئ، المميت، باعث الحياة.. المُتجلي، المتغطرس، المعتد.. هو ذاك المجهول الذي يجول في دمائي، وتطفو أمواجه أينما مسكت القلم لتنثّ على الورق مُعبرة عن وجوده الدائم في داخلي وحولي وبين كلماتي...".

تمتاز قصائد ودواوين الشاعر بتلكم الغنائيّة التي تعتمد على التضّاد الشعريّ كمفردة لابدّ منها في أبياته، لأنّه كما يقول عنها:" الحياة بمجملها مبنيّة على التضاد الذي نحسّه داخلنا بحرارة ونحسّه خارجنا بحرارة وحُرقة اكبر... وفي اعتقادي أنّ هذا الثنائيّة ستظلّ ثنائيّة خالدة، لها جوانبها الايجابيّة بحرارة وحرقة أكبر... وفي اعتقادي أنّ هذه الثنائية ستظلّ ثنائيّة خالدة، لها جوانبها الايجابيّة حيث تعطينا فسحة للأمل ما بين ما هو مُجرّد وما هو محسوس، وفسحة أخرى لتجاوز التأمل والابتعاد إلى ما وراء مجردة ومحسوسة حيث القصيدة تضيء حلمها بالذي لم تقله:

الشعرُ طائر النار يغني في دمي،
وزهرة مائيّة الألوان في ذبولي
واخضراريّ.

ويكاد أن يجمع الأدباء الشباب اليوم على أنّ الشاعر علي عبدالله خليفة هو الرائد المحليّ في تجربة الشعر الجديد، أو على الأقلّ كانت تجربته بداية الادراكات الواعيّة في الشعر حين اتجه إلى إسقاط قضيّة البحّار التي كانت تُعدّ قضية الغالبية العظمى من الناس في منطقة الخليج على واقع الإنسان المعاصر... ويرى الناقد العراقي طراد الكبيسي بأنّ تجربة الشاعر قد تطورت تطوراً كبيراً عمّا كان عليه في ديوانه البكر" أنين الصواري" فهو قد تخلصّ من كثير من القيود الشعريّة التي ارتضاها لنفسه هناك، أو وجد نفسه داخلها، كالقوافي المطردة أو المترادفة، بل والبلاغة التي يتصور أنّها هي البلاغة في قرقعة الألفاظ ورنين الموسيقى والجُمَل أو الشطر التي تكاد تستقل بنفسها... ويقول الشاعر علي عبدالله خليفة في" قصيدة حزن ليلي: طفول في ديوانه" إضاءة لذاكرة وطن":

" زرقة البحر قامتْ على كتفها
طفلتانْ/ طفلةٌ قبّلتني ونامتْ/ حقولْ
بَبَايٍ حزينٍ بحضن المروجْ/ طفلةٌ
عذبتني طويلاً طويلاً/ ولمّا تَنَم...

النصّ والشعر

يؤمن الشاعر خليفة في تحويل أيّ نصّ إلى اللغة الشعرية الجميلة إيماناً عميقاً من أنّ الشعريّة عنده بمثابة: روح يحس... وهذه الروح تتجلى بدرجات.. من موقع لآخر، من شاعر لآخر.. حسب التجربة وقوة التعبير عن التجربة شعراً... ولا اعتقد أن فنّ الشعر العظيم الذي اعتبره مفتاح القول الجميل سيكون يوما دون قاعدة ودون أصول.. وأنا هنا اقصد بالقاعدة والأصول الفضاء الموسيقي الذي تسبح فيه هذه الروح.. والموسيقي هنا لا تعني فقط الوزن الخارجي، بل تضم إليها موسيقي الباطن للمفردة والصورة والذات واللون وشفافية التعبير وموسيقي الغائب الراغب بالحضور بكيفية مختلفة...، ويقول في ديوانه" وداع السيدة الخضراء" ضمن قصيدته" زهرة البرسيم":" اخذتْ هواك قنديلاً، وأوجعني/ سوادُ الليل في عينيّ، والأبراجُ مُوصَدَة،/ منافذها على قلبي،/ تشدّ قوافل العُشّاق راحلةً،/ خيامي السُود ما برحَت،/ وجفّ النبْعُ والوديان لم تكلأ بهذا العام، والصحراء لم تشهّد لنا عُرْساً،/ يُعذّبُني هَديلُ حمائم الأسحار، وجهُ الريح مُغبر
يباغتُني، ويخطف صَحوة التذكار، أحملها/ تَئنُ حبيبتي في القلب مَجروحة/ وتشكُو زَهرة البرسيم،

صوت رائد

أصدر الشاعر خلال مسيرته الأدبية- الشعريّة مجموعته الأولى "أنين الصواري" العام 1969م، حيث وصف فيه معاناة البحارة وما يعانونه من ظلمّ وجور أصحاب السفنّ والديون المسلطة عليهم في حياتهم وحتى بعد مماتهم. ومن ديوانه الشعري "أنين الصواري نسج حكاية المسرحية التي حملت اسمه وجعلت أشعار الشاعر هي الأحداث والحوار المتبادل بين شخوص المسرحية، وحكاية البحار الذي لا تنتهي مأساته بكى صدغه حتى يعود لممارسة الغوص ولا بموته نتيجة لتقرح جروحه وانتشارها فهو مَدين لصاحب السفينة لذلك يقاد طفله الصغير لرحلة الغوص ليسدد دين والده، وقُدّمت الديوان- المسرحية- العام 1984م من فصل واحد من قبل فرقة مسرح السدّ في الدوحة وشارك في تمثيلها الفنانون: عبدالعزيز جاسم، صلاح الملا، محمد يوسف، مريم راشد وآخرين.

وظلّ علي عبدالله خليفة بعد ديوانه أنين الصواري في تواصل مع عملية إبداع الشعر، إذ أصدر عدة مجموعات شعرية بالفصحى والعامية. وعبرت أشعاره بحرارة، عن هموم وتطلعات الإنسان البحريني المعاصر ومكابداته الروحية. واحد ممنّ تأسرهم المشاهدة العيانية لحياة المجتمع، ويحبّ أسئلة الدهشة في قصائده حيث يتوكأ عليها كما يقول الناقد ياسر عثمان: "في غايته لفتح الدلالة وتحريك أجنحة الانزياح لتستمر في نموها الذي لا يتوقف لحظة المخاض وميلاد الأسئلة بل يستمر مُستجيباً للعبة التداول على إستراتيجية التدمير والهدم من خلال إشعال الأسئلة ذاتها في لحظة عدميّة تدميريّة تحيل ما سبقها من مشاهد الدهشة التي كونها الوعي المصدوم بلحظة الدهشة إلى نفايات من الممكن للتداول أن يعيد استخدامها من جديد في بناء مشاهد الموازية المفتوحة مُهتدياً بالضوء المُنبعث من تلك النفايات

حورية ولا يتشابه الشجر

وصدرت للشاعر البحريني علي عبدالله خليفة بعد ديوانه الأول" أنين الصواري" العام 1969م، دواوين: عطش النخيل 1970م، إضاءة لذاكرة الوطن 1973م، عصافير المساء 1983م، في وداع السيدة الخضراء 1992م، حورية العاشق 2000م، يعشب الورق" مختارات شعرية" 2005م، لا يتشابه الشجر 2005م، فضلاً عن اوبريتات غنائية كتبها ومنها:" أوبريت صانع المجد" 1996م، وانتظرتك طويلاً، 2001م، و" على قلب واحد" 2002م، والمجموعة الشعرية السابعة له هي " لا يتشابه الشجر"، التي صدرت في بيروت.

علي عبدالله خليفة